سورة الزخرف

مكية، وقال مقاتل: إلا قوله: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ وهي تسع وثمانون آية [نزلت بعد الشورى]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن [1] وجعل قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ جوابًا للقسم [2] وهو من الأيمان الحسنة البديعة؛ لتناسب القسم والمقسم عليه، وكونهما من واد واحد. ونظيره قول أبي تمام [من الخفيف]:

وَثَنَايَاكِ إِنَّهَا إِغْرِيضُ .... [3]

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ البين للذين أنزل عليهم؛ لأنه بلغتهم وأساليبهم. وقيل: الواضح

---

(١) نلاحظ القسم بالكتاب المبين وهو القرآن والمقسم عليه ما بعده ليدل على أنه لا بد من وجود علاقة قوية بين المقسم به والمقسم عليه، وكلما وضحت هذه العلاقة كلما كان القسم بليغًا، وهذا ما رأيناه في هذه الآيات، وقد وضح المفسر العلامة هذا في مواضع كثيرة، وانظر هذا المعنى واضحًا عنده في قوله تعالى:
﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ [سبأ: ٣].
«يراجع البلاغة القرآنية لأبي موسى ٣٨١».

(٢) قال محمود: «أقسم بالكتاب المبين وجعل قوله: (إنا جعلناه قرآنًا عربيًا) جوابًا للقسم... الخ» قال أحمد: تنبيه حسن جدًا. ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن، وإنما يقسم بعظيم، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن عربي مرجو به أن يعقل به العالمون، أي: يتعقلوا آيات الله تعالى فكان جواب القسم مصححًا للقسم، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا، وإنما يقسم الشعراء بمثل هذا الإشعار بأنه في غاية الحسن، ثم جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن، لا أنها هي إغريض، وهو من أحسن تشبيهات الثنايا، فجعل المقسم عليه مصححًا للقسم والله أعلم.

(٣) وثنايـاك إنهـا إغـريـض ولآل تـوار أرض ومـيـض =

للمتدبرين. وقيل: (المبين) الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة، وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة. ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾ بمعنى صيرناه معدّى إلى مفعولين. أو بمعنى خلقناه معدّى إلى واحد، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. و﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ حال. و«لعل»: مستعار لمعنى الإرادة[١]؛ لتلاحظ[٢] معناها ومعنى الترجي[٣]، أي خلقناه عربيًّا غير عجمي: إرادة أن تعقله العرب، ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته، وقرئ: «أمّ الكتاب» بالكسر وهو اللوح، كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢] سمي بأم الكتاب؛ لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب، منه تنقل وتستنسخ. عَلِيّ رفيع الشأن في الكتب؛ لكونه معجزًا من بينها، ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغة، أي: منزلته عندنا منزلة كتاب هما صفتاه، وهو مثبت في أم الكتاب هكذا.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ بمعنى: أفننحي عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز، من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض. ومنه قول الحجاج: ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. وقال طرفة [من المنسرح]:

إِضْرِبْ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا ... ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ[٤]

= وأقاح منور في بطاح ... هزه في الصباح روض أريض

لأبي تمام. والإغريض: البرد. والطلع والنوار: كرمان نور الشجر، واحده نوارة. والوميض: شديد البريق واللمعان. والأقاح: نور أبيض طيب الرائحة. والأريض: طيب الأرض، فيكون نضرًا بهيجًا: أقسم بثناياها أي: مقدم أسنانها، إنها: أي ثناياها إغريض. فالقسم وجوابه متعلقان بشيء واحد، وشبههما بالبرد وبنوار الأرض الشبيه باللآلىء. فأضافتها إليه للتشبيه. ووميض: نعت مقطوع للنوار. أو تابع للإغريض؛ لكن الأول أجزل، وشبهه بالأقاح الذي نور في البطاح؛ لأنه أنضر وأزهى. وهزه في الصباح من صفة الأقاح «وخص الصباح ليكون على الزهر بقية من الندى، فيكون في غاية النضرة والزهو. وفيه إيماء لتشبيه قوام محبوبته بأغصان الروض في التمايل وظهور الزهور في أعلى كل منهما، ولك أن تجعل «وميض» صفة للآلىء، وإن كانت جمعًا؛ لأن فعيل بمعنى فاعل قد يعامل معاملته فعيل بمعنى مفعول، فيطلق على الواحد والمتعدد مذكرًا ومؤنثًا. ويروى بدل الشطر الثاني: ولآل توم ورق وميض. والتوم: واحدة تومة «وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة، ولا إشكال في إعرابه».

(١) قال محمود: «ولعل مستعار لمعنى الإرادة» (فسره بالإرادة) قال أحمد: قد بينا فساد ذلك غير ما مرة.

(٢) قوله: «لتلاحظ معناها» لعله: ليلاحظ. (ع)

(٣) قوله: «ومعنى الترجي» لعله: أو معنى. (ع)

(٤) تقدم.

والفاء للعطف على محذوف، تقديره: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر؛ إنكارًا لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم على إنزاله الكتاب. وخلقه قرآنًا عربيًا؛ ليعقلوه ويعملوا بمواجبه. وصفحًا على وجهين. إما مصدر من صفح عنه إذا أعرض، منتصب على أنه مفعول له، على معنى: أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضًا عنكم. وإمّا بمعنى الجانب من قولهم: نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه، على معنى: أفننحيه عنكم جانبًا، فينتصب على الظرف كما تقول: ضعه جانبًا، وامش جانبًا. وتعضده قراءة من قرأ «صفحًا» بالضم. وفي/ ٢/ ١٦٦ب هذه القراءة وجه آخر: وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح، وينتصب على الحال، أي: صافحين معرضين؛ ﴿أَن كُنتُمْ﴾ أي: لأن كنتم. وقرئ: «إن كنتم» و﴿إِذْ كُنتُمْ﴾. فإن قلت: كيف استقام معنى إن الشرطية، وقد كانوا مسرفين على البتّ؟ قلت: هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل[1] بصحة الأمر، المتحقق لثبوته، كما يقول الأجير: إن كنت عملت لك فوفني حقي، وهو عالم بذلك، ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق: فعل من له شك في الاستحقاق، مع وضوحه استجهالاً له.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ حكاية حال ماضية مستمرة، أي: كانوا على ذلك. وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه. الضمير في ﴿أَشَدَّ مِنْهُم﴾ للقوم المسرفين؛ لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول الله ﷺ يخبره عنهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل، وهذا وعد لرسول الله ﷺ، ووعيد لهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾

فإن قلت: قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ وما سرد من الأوصاف عقيبه إن كان من قولهم[2]، فما تصنع بقوله: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؟ وإن كان من قول

---

(١) قوله: «عن المدل» أي: المواثق. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «فإن قلت: قوله: (ليقولون خلقهن العزيز العليم) وما سرد من الأوصاف عقبه إن كان من قولهم... الخ» قال أحمد: الذي يظهر أن الكلام مجزأ، فبعضه من قولهم، وبعضه من قول =

الله، فما وجهه؟ قلت: هو من قول الله لا من قولهم. ومعنى قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الذي من صفته كيت وكيت؛ لينسبنّ خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه. ﴿بِقَدَرٍ﴾ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد، ولم يكن طوفانًا.

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

و﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي تركبونه. فإن قلت: يقال: ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك[1]. وقد ذكر الجنسين فكيف قال ما تركبونه؟ قلت: غلب المتعدّي بغير

= الله تعالى، فالذي هو من قولهم: (خلقهن)، وما بعده من قول الله عز وجل، وأصل الكلام أنهم قالوا: خلقهن الله؛ ويدل عليه قوله في الآية الأخرى: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لما قالوا: خلقهن الله وصف الله تعالى ذاته بهذه الصفات، ولما سيق الكلام كله سياقه وأخذه، حذف الموصوف من كلامه، وأقيمت الصفات المذكورة في كلام الله تعالى مقامه كأنه كلام واحد. ونظير هذا أن تقول للرجل: من أكرمك من القوم؟ فيقول أكرمني زيد، فتقول أنت واصفًا للمذكور: الكريم الجواد الذي من صفته كذا وكذا، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام الله عز وجل، جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الافتنان في البلاغة، فجاء أوله على لفظ الغيبة وآخره على الانتقال منها، إلى التكلم في قوله: (فأنشرنا) كل ذلك افتنان في أفنان البلاغة. ومن هذا النمط قوله تعالى حكاية عن موسى: (قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذي جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلًا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى) فجاء أول الكلام حكاية عن موسى، إلى قوله: (ولا ينسى) ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام الله تعالى، فوصف ذاته أوصافًا متصلة بكلام موسى؛ حتى كأنه كلام واحد. وابتدأ في ذكر صفاته على لفظ الغيبة إلى قوله: (فأخرجنا به أزواجًا من نبات شتى) فانظر إلى تحقيق التطبيق بين الآيتين ترى العجب، والله الموفق.

(١) قال محمود: «يقال: ركبت الدابة وركبت في الفلك... الخ» قال أحمد: لم يحرر العبارة في هذا الموضع، فإن قوله: «غلب المتعدي بغير واسطة على المتعدي بنفسه» يوهم أن بين الفعلين تباينًا وليس كذلك. فإن المتعدي إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدي إلى السفن، غاية ما، ثُمَّ أن العرب خصته باعتبار بعض مفاعيله بالواسطة. وباعتبار بعضها بالتعدي بنفسه، والاختلاف بالتعدي والقصور أو باختلاف آلات التعدي وباختلاف أعداد المفاعيل ـ لا يوجب الاختلاف في المعنى، فمن ثم يعدون الفعل الواحد مرة بنفسه ومرة بواسطة، مثل: سكرت وأخواته، ويعدون الأفعال المترادفة بآلات مختلفة، مثل دعوت وصليت، فإنك تقول: صلى النبي على آل أبي أوفى، ولو قلت: دعا على آل أبي أوفى: لأفهم عكس المقصود، ولكن دعا لآل أبي أوفى، ويعدون بعضها إلى مفعولين، ومرادفه إلى مفعول واحد، كعلم وعرف، فلا يترتب على الاختلاف بالتعدي. والقصور: الاختلاف في المعنى، فالذي يحرر من هذا: أن «ركب» باعتبار القبيلين معناه واحد، وإن خص =

واسطة؛ لقوّته على المتعدّي بواسطة، فقيل: تركبونه. ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام. ومعنى ذكر نعمة الله عليهم: أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها، ثم يحمدوا عليها بألسنتهم، وهو ما يروى عن النبي ﷺ أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال: «بسم الله»، فإذا استوى على الدابة قال: «الحمد لله على كل حال، سبحان الذي سخر لنا هذا... إلى قوله. لمنقلبون» وكبر ثلاثًا وهلل ثلاثًا (١٣٨٧). وقالوا: إذا ركب في السفينة قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٣٨٨) [هود: ٤١] وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال: سبحان

١٣٨٧ ـ أخرجه أبو داود (٣/ ٣٤) كتاب الجهاد باب ما يقول الرجل إذا ركب، حديث (٢٦٠٢)، والترمذي (٥/ ٥٠١) كتاب الدعوات باب ما جاء ما يقول إذا ركب دابة، حديث (٣٤٤٦)، والنسائي (٥/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨) كتاب السير: باب التسمية عند ركوب الدابة والتحميد، والدعاء إذا استوى على ظهرها حديث (٨٧٩٩)، وأحمد (١/ ٩٧، ١١٥)، والطيالسي (١/ ١٢٢ ـ منحة) رقم (٥٧٤)، وابن حبان (٢٣٨٠، ٢٣٨١ ـ موارد) وعبد بن حميد رقم (٨٨)، والحاكم (٢/ ٩٩) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥/ ٢٥٢)، وفي «الأسماء والصفات» ص (٤٧١) كلهم من طريق أبي إسحاق عن علي بن ربيعة عن علي به.
وقال الترمذي: حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه ووافقه الذهبي.
وقال الحافظ: أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم من حديث علي، وأسنده الثعلبي باللفظ المذكور هنا، ولمسلم من طريق علي الأزرقي عن ابن عمر: «أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا ثم قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا الآية». انتهى.
١٣٨٨ ـ قال الزيلعي: غريب.
قال ابن حجر لم أجده من فعله ـ ﷺ ـ لكنه مروي من قوله ﷺ
أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٢/ ١٢٤). حديث (١٢٦٦١) من حديث ابن عباس، وأورده الحافظ نور الدين الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٥): كتاب الأذكار: باب ما يقول إذا ركب البحر، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٠٢)، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، قال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه نهشل بن سعيد وهو متروك.
أخرجه أبو يعلى الموصلي (١٢/ ١٥٢)، حديث برقم (٦٧٨١)،
وذكره ابن حجر في المطالب العالية (٣/ ٢٣٧): كتاب الأذكار والدعوات: باب ما يقول من ركب =

= أحدهما باقتران الواسطة والآخر بسقوطها، فالصواب أحد الأمرين: إما تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه، والأقرب تعليله باعتبار التعدي بنفسه، ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر، وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى: (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) على أحد التأويلين فيه: فإن التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى، أعني: أجمع على الأمر وجمع الشركاء، ولكن لما تقارنا: غلب أحدهما على الآخر، ثم جعل المغلب هو المتعدي بنفسه، والله أعلم.

الذي سخر لنا هذا. فقال: أبهذا أمرتم؟ فقال: وبم أمرنا؟ قال: أن تذكروا نعمة ربكم (١٣٨٩)، كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه. وهذا من حسن مراعاتهم لآداب الله ومحافظتهم على دقيقها وجليلها. جعلنا الله من المقتدين بهم والسائرين بسيرتهم، فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات، فكيف بالنظر في لطائف الديانات؟ ﴿مُقْرِنِينَ﴾ مطيقين. يقال: أقرن الشيء، إذا أطاقه. قال ابن هرمة [من الطويل]:

وَأَقْرَنْتُ مَا حَمَّلْتَنِي وَلَقَلَّمَا ... يُطَاقُ ٱحْتِمَالُ الصَّدِّ يَا دَعْدُ وَالْهَجْرُ (١)

وحقيقة «أقرنه»: وجده قرينته وما يقرن به؛ لأنّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف. ألا ترى إلى قولهم في الضعيف: لا يقرن به الصعبة. وقرئ «مقرنين» والمعنى واحد. فإن قلت: كيف اتصل بذلك قوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾؟ قلت: كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت (٢) أو طاح من ظهرها فهلك، وكم من راكبين في سفينة

= السفينة حديث (٣٣٦٥) وعزاه لأبي يعلى، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٥)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٦٠٢)، وزاد نسبته إلى الطبراني وابن السني وابن عدي وأبي الشيخ وابن مردويه.

وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٥٠) وزاد نسبته إلى الطبراني في الدعاء.

قال الهيثمي: رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن مفلس وهو ضعيف، وقال الحافظ ابن حجر في الكشاف: لم أجده من فعله ﷺ وفي الطبراني من حديث الضحاك عن ابن عباس رفعه: «أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك أن يقولوا: بسم الله، وما قدروا الله حق قدره ـ الآية بسم الله مجريها ومرساها» ورواه في الدعاء من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما. انتهى.

١٣٨٩ ـ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ٩١): كتاب الدعاء باب في الرجل يركب الدابة والبعير ما يدعو به حديث (٢٩٧٢٤)، وأخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ١٧٠) حديث (٣٠٧٧٧)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٩١) وزاد عزوه إلى ابن المنذر وعبد بن حميد، وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٥١)، وزاد عزوه إلى الطبراني في كتاب الدعاء، وقال الحافظ: أخرجه الطبري والطبراني في الدعاء من طريق مجلس عن حسين بن علي فذكره. . انتهى.

---

(١) لابن هرمة «وأقرنت الشيء: إذا وجدته قرينًا لك لا يزيد عنك» ثم استعمل في الإطاقة توسعًا. ولقلما: اللام للقسم. وقل: فعل. وما: كافة، ركبت معه فصار المراد منه النفي ولا فاعل له، وشبه المعقول من الصد والهجر بالمحسوس على طريق الكناية، والحمل تخييل، يقول: أطقت ما حملتني إياه من صدك عني وهجرك لي، والحال أنه لا يطاق احتمالهما. وفي الاعتراض بندائها: نوع استعطاف.

ينظر: البحر ٨/ ٧، والدرر المصون ٦/ ٩٣.

(٢) قوله: «أو شمست أو تقحمت» في الصحاح: شمس الفرس شموسًا وشماسًا: منع ظهره. وفيه «القحمة» بالضم: المهلكة. وقحم الطريق: مصاعبه. اهـ، فتقحم الدابة براكبها: خوضها به في قحمته. (ع)

انكسرت بهم فغرقوا؛ فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر، واتصالاً بسبب من أسباب التلف: كان من حق الراكب وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى الله غير منفلت من قضائه، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدًا للقاء الله بإصلاحه من نفسه، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه، ويستعيذ بالله من مقام من يقول لقرنائه: تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق؛ فيركبون حاملين مع أنفسهم أواني الخمر والمعازف، فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم[1] وهم على ظهور الدواب، أو في بطون السفن/ ٢/ ١٦٧أ وهي تجري بهم، لا يذكرون إلا الشيطان، ولا يمتثلون إلا أوامره. وقد بلغني أنّ بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر، فلم يصح إلا بعدما اطمأنت به الدار، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به، فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمر الله به في هذه الآية. وقيل: يذكرون عند الركوب ركوب الجنازة.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ متصل بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ [الزخرف: ٩] أي: ولئن سألتهم عن خالق السموات والأرض ليعترفن به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزءًا فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أن قالوا: الملائكة بنات الله، فجعلوهم جزءًا له وبعضًا منه، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءًا له. ومن بدع التفاسير: تفسير الجزء بالإناث، وادعاء أنّ الجزء في لغة العرب: اسم للإناث، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه: أجزأت المرأة، ثم صنعوا بيتًا وبيتًا [من البسيط]:

إنْ أَجْـزَأَتْ حُـرَّةٌ يَـوْمًـا فَـلاَ عَـجَـبٌ ....[2]

* * *

---

(١) قوله: «حتى تميل طلاهم» في الصحاح «الطلى» الأعناق. قال الأصمعي: واحدتها طلية. وقال أبو عمرو والفراء: واحدتها طلاة. (ع)

(٢) إن أجزأت حرة يومًا فلا عجب ... قد تجزئ الحرة المذكار أحيانًا

قيل: «الجزؤ» اسم للأنثى، واشتقوا منه: أجزأت المرأة، إذا ولدت جزءًا: أي أنثى. وأنكره الزمخشري وقال: إنه اصطناع لا لغة. والمعنى: إن ولدت امرأة حرة أنثى في بعض الأحيان فلا =

[ومن البسيط]:

زُوِّجْتُهَا مِنْ بَنَاتِ الأَوْسِ مُجْزِئَةً ..... [1]

وقرئ: «جزؤوا» بضمتين. ﴿لَكَفُورٌ﴾ لجحود للنعمة ظاهر جحوده؛ لأنّ نسبة الولد إليه كفر، والكفر أصل الكفران كله. ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ بل اتخذ، والهمزة للإنكار: تجهيلاً لهم وتعجيبًا من شأنهم؛ حيث لم يرضوا بأن جعلوا لله من عباده جزءًا، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين: وهو الإناث دون الذكور، على أنهم أنفر خلق الله عن الإناث وأمقتهم لهنّ، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهنّ، كأنه قيل: هبوا أنّ إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضًا وتمثيلاً، أما تستحيون من الشطط في القسمة؟ ومن ادعائكم[2] أنه آثركم على نفسه بخير

= عجب؛ فإن الحرة التي تلد الذكور كثيرًا قد تلد أنثى في بعض الأوقات. وقيل: حرة الأولى اسم امرأة، والثانية صفة.

ينظر: لسان العرب: (جزأ)، وتهذيب اللغة ١١/ ١٤٥، وتاج العروس (جزأ).

(١) زوجتها من بنات الأوس مجزئة ... للعوسج اللدن في أبياتها زجل

قيل: «المجزئة» التي تلد البنات. والجزؤ: البنت. وأنكره الزمخشري وقال: إنه مصنوع لا لغة. والعوسج: ضرب من الشوك. والمراد به: عود المغزل المتخذ منه. واللدن: اللين. والزجل: صوت دوران المغزل. ونحوه: وزوجتها، مبني للمجهول. وروي: «نكحتها من بنات الأوس» هو أبو قبيلة سميت باسمه، تلد تلك المرأة البنات، وجعل العوسج لدنًا؛ لأنه أكثر دويًا ورنينًا في دورانه.

ينظر: تاج العروس (جزأ)، ولسان العرب (جزأ)، وتهذيب اللغة: ١١/ ١٤٦.

(٢) قال محمود: «كأنه قيل: هبوا أن إضافة الولد إليه جائزة فرضًا وتمثيلاً أما تستحيون من الشطط في القسمة؟ ومن ادعاء أنه آثركم على نفسه... الخ» قال أحمد: نحن معاشر أهل السنة نقول: إن كل شيء بمشيئة الله تعالى، حتى الضلالة والهدى: اتباعًا لدليل العقل، وتصديقًا لنص النقل في أمثال قوله تعالى: (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيدًا، ولا تفيده إلا تصويبًا وتسديدًا، فنقول: إذا قال الكافر: لو شاء الله ما كفرت، فهذه كلمة حق أراد بها باطلاً. أما كونها كلمة حق فلما مهدناه. وأما كونه أراد بها باطلاً، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على الله، توهمًا أنه يلزم من مشيئة الله تعالى لضلالة من ضل أن لا يعاقبه على ذلك؛ لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهم القدرية إخوان الوثنية ذلك، فأشركوا بربهم، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة؛ لأن هؤلاء أشركوا أنفسهم الدنية في ملك ربهم المتوحد بالربانية جل وعلا، فإذا وضح ما قلناه فإنما رد الله عليهم مقالتهم هذه، لأنهم توهموا أنها حجة على الله، فدحض الله حجتهم، وأكذب أمنيتهم، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض، فقال: (ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون)، (وإن هم إلا يظنون) وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير، وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسل والإشراك بالله: اغترارهم بأن لهم الحجة على الله بقولهم: (لو شاء الله ما أشركنا) فشبه =

الجزأين وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما؟ وتنكير ﴿إِنَاثٍ﴾ وتعريف ﴿ٱلْبَنِينَ﴾ وتقديمهنّ في الذكر عليهم لما ذكرت في قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] ﴿مَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعله له مثلاً، أي: شبهًا لأنه إذا جعل الملائكة جزءًا لله وبعضًا منه فقد جعله من جنسه ومماثلاً له؛ لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد، يعني: أنهم نسبوا إليه هذا الجنس. ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له: قد ولدت لك بنت اغتم واربدّ وجهه[1] غيظًا وتأسفًا وهو مملوء من الكرب. وعن بعض العرب: أن امرأته وضعت أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة، فقالت [من الرجز]:

مَا لأَبِي حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا؟ ... يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا

غَضْبَانُ أَنْ لاَ نَلِدَ الْبَنِينَا ... لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَاشِينَا

وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا[2]

= تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أوائلهم، ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب، فقال: (إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون) ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقالتهم حجة على الله: أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله: (فلله الحجة البالغة) ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على الله بذلك، لا لأن المقالة في نفسها كذب، فقال: (فلو شاء لهداكم أجمعين) وهو معنى قولهم: (لو شاء الله ما أشركنا) من حيث إنَّ (لو) مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة، فدلت الآية الأخيرة على أن الله تعالى لم يشأ هدايتهم، بل شاء ضلالتهم. ولو شاء هدايتهم لما ضلوا؛ فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم، والنور اللائح والمنهج الواضح. والذي يدحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أن الله تعالى شاء وقوع الضلالة منهم: هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيًا وتيسرًا للهداية وغيرها من الأفعال الكسبية. حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف؛ لأنها اختيارية يفرق بالضرورة بينها وبين العوارض القسرية؛ فهذه الآية أقامت الحجة، ووضحت لمن اصطفاه الله للمعتقدات الصحيحة المحجة؛ ولما كانت تفرقة دقيقة لم تنتظم في سلك الأفهام الكثيفة؛ فلا جرم أن أفهامهم تبددت، وأفكارهم تبدلت؛ فغلت طائفة القدرية واعتقدت أن العبد فعال لما يريد على خلاف مشيئة ربه، وجارت الجبرية فاعتقدت أن لا قدرة للعبد البتة ولا اختيار، وأن جميع الأفعال صادرة منه على سبيل الاضطرار. أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطًا، وأرشدهم إلى الطريق الوسطى؛ فانتهجوا سبل السلام، وساروا ورائد التوفيق لهم إمام، مستضيئين بأنوار العقول المرشدة إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته، ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة؛ لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة، لكنها قدرة تقارن بلا تأثير، وتميز بين الضروري والاختياري في التصوير، فهذا هو التحقيق، والله ولي التوفيق.

(١) قوله: «واربد وجهه غيظًا» تغير إلى الغبرة من الغضب. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) ما لأبي حمزة لا يأتينا؟ ... يظل في البيت الذي يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا ... ليس لنا من أمرنا ما شينا

وإنما نأخذ ما أعطينا ... حكمة ربي ذي الجلال فينا

لامرأة ولدت أنثى فهجر زوجها بيتها، والاستفهام إنكاري. ويظل: استئناف، أي يصير دائمًا في =

والظلول بمعنى الصيرورة، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها. وقرئ: «مسودّ ومسوادّ» على أن في ﴿لَلَّ﴾ ضمير المبشر، و﴿وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ جملة واقعة موقع الخبر، ثم قال: أو يجعل للرحمٰن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته. وهو أنه ﴿يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: يتربى في الزينة والنعمة، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم[1] ومجاراة الرجال، كان غير مبين، ليس عنده بيان، ولا يأتي ببرهان يحتج به من يخاصمه[2] وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهنّ عن فطرة الرجال، يقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها. وفيه: أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام، وأنه من صفة ربات الحجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه، ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا (١٣٩٠). وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى. وقرئ: «ينشأ»، وينشأ، ويناشأ. ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء: المغالاة بمعنى الإغلاء.

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾

قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات؛ وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد، ونسبوا إليه أخسّ النوعين؛ وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله[3]، فاستخفوا بهم

١٣٩٠ ـ أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/٢٦٨): كتاب اللباس وآدابه: باب ذكر الإباحة للمرء أن يكون مطلق الإزار في الأحوال، حديث (٥٤٥٤) وذكره الزيلعي في تخريج الكشاف، وزاد نسبته إلى أبو عبد القاسم في غريب الحديث: (٣/٢٥١ ـ كشاف) قال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: أخرجه أبو عبيد في الغريب: حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي العدس الأسدي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: ذكر هذا وزاد، واجعلوا الرأس رأسين ـ الحديث» موقوفًا، ورواه ابن حبان من طريق أبي عثمان. قال: أتانا كتاب عمر فذكر قصة فيها هذا. انتهى.

= البيت الذي يقرب منا، ولا يأوي إلى بيتنا، وغضبان: أي هو غضبان، فهو على تقدير الاستفهام. ويحتمل أنه إخبار، أي: هو غضبان من عدم ولادتنا البنين، ثم ترضته واستعطفته بقولها: ليس لنا من أمرنا ما نشاء، فخفف همزة شئنا للقافية، ولا نأخذ إلا ما أعطانا الله إياه؛ لأن الأمر كله لله، تلك حكمته فينا معاشر الخلق.

(١) قوله: «إلى مجاثاة الخصوم» مفاعلة من «جثا يجثو» إذا برك على ركبتيه. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «يحتج به من يخاصمه» لعله: على من يخاصمه، أو لعله: يحج به من يخاصمه، أي: يغلبه في الحجاج. (ع)

(٣) قوله: «هم أكرم عباد الله على الله» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فبعض البشر أكرم عندهم من الملك. (ع)

واحتقروهم. وقرئ: «عباد الرحمٰن» وعبيد الرحمٰن، وعبد الرحمٰن، وهو مثل لزلفاهم واختصاصهم. وإناثًا، وأنثا: جمع الجمع. ومعنى جعلوا: سموا وقالوا: إنهم إناث. وقرئ: «أشهدوا» وأأشهدوا، بهمزتين مفتوحة ومضمومة. وآأشهدوا بألف بينهما، وهذا تهكم بهم/ ٢/ ١٦٧ب، بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم، فإن الله لم يضطرهم إلى علم ذلك، ولا تطرّقوا إليه باستدلال، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم، فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم، فأخبروا عن هذه المشاهدة. ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم، ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ وهذا وعيد. وقرئ: «سيكتب» وسنكتب: بالياء والنون. وشهادتهم، وشهاداتهم. ويساءلون على: يفاعلون.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ هما كفرتان أيضًا مضمومتان إلى الكفرات الثلاث، وهما: عبادتهم الملائكة من دون الله، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئة الله، كما يقول إخوانهم المجبرة[1]، فإن قلت: ما أنكرت على من يقول: قالوا ذلك على وجه الاستهزاء، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين؟ قلت: لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين، وادعاء ما لا دليل عليه باطل، على أن الله تعالى قد حكى عنهم ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر: أنهم جعلوا له من عباده جزءًا، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثًا. وأنهم عبدوهم وقالوا: لو شاء الرحمٰن ما عبدناهم، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء: لكان النطق بالمحكيات[2] ـ قبل هذا المحكى الذي هو إيمان عنده لو جدّوا في النطق به ـ مدحًا لهم، من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء؛ فبقي أن يكونوا جادين، وتشترك كلها في أنها كلمات كفر، فإن قالوا: نجعل هذا الأخير وحده مقولاً على وجه الهزء دون ما قبله، فما بهم إلا تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لتسوية مذهبهم الباطل. ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزءًا

---

(١) قوله: «المجبرة» يريد أهل السنة، حيث قالوا: إنه تعالى يريد الشر كالخير؛ لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد، لكن هذا لا يستلزم الجبر ولا ينافي اختيار العبد؛ لما له في أفعاله من الكسب وإن كانت مخلوقة له تعالى في الحقيقة، بل الجبر إنما يكون لو كان العباد لا دخل له في أفعاله أصلاً، كالريشة في الهواء، كما قالت المجبرة الحقيقية. وإنما ذم الله تلك المقالة من الكفار؛ لأنهم قالوها استهزاء وعنادًا، لا إقرارًا واعتقادًا، والدليل على ذلك إجماع سلف الأمة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. (ع).

(٢) قوله: «لكان النطق بالمحكيات... الخ» ممنوع، وكذا ما بعده، والمعتزلة قالوا: لا يريد الشر بناء على أن الإرادة هي الأمر، وهو ممنوع، وعفا الله عن صاحب الكتاب في بذاءة لسانه على أهل السنة، وجعلهم إخوان الكفار. (ع)

لم يكن لقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ معنى، لأنّ من قال: لا إله إلا الله على طريق الهزء: كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب؛ لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جادًا كان أو هازئًا. فإن قلت: ما قولك فيمن يفسر ما لهم ـ بقولهم[1]: إن الملائكة بنات الله ـ من علم إن هم إلا يخرصون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة الله؟ قلت: تمحل مبطل وتحريف مكابر. ونحوه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

الضمير في ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ للقرآن أو الرسول. والمعنى: أنهم ألصقوا عبادة غير الله بمشيئة الله: قولاً قالوه غير مستند إلى علم، ثم قال: أم آتيناهم كتابًا قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا، فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحي، فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به. بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ على دين. وقرئ: «على إمة» بالكسر، وكلتاهما من الأمّ وهو القصد، فالأمة: الطريقة التي تؤم، أي: تقصد، كالرحلة للمرحول إليه. والأمة: الحالة التي يكون عليها الآم وهو القاصد. وقيل: على نعمة وحالة حسنة. ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ خبر «إن». أو الظرف صلة لمهتدون.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ الذين أترفتهم النعمة، أي أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه.

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قرئ: «قل» وقال: وجئتكم، وجئناكم، يعني، أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى

---

(١) قوله: «ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم؟» لعله: «يفسر مالهم بذلك بقوله ما لهم بقولهم... الخ». (ع)

من دين آبائكم؟ قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه، وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قرئ: «براء» بفتح الباء وضمها. وبريء، فبريء وبراء، نحو كريم وكرام[1]؛ وبراء: مصدر كظماء؛ ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة، والمذكر والمؤنث. يقال: نحن البراء منك، والخلاء منك. ﴿ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ فيه غير وجه: أن يكون منصوبًا على أنه استثناء منقطع، كأنه قال: لكن الذي فطرني فإنه سيهدين، وأن يكون مجرورًا بدلاً من المجرور بمن؛ كأنه قال: إنني براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني[2]. فإن قلت: كيف تجعله بدلاً وليس من جنس ما يعبدون من وجهين؛ أحدهما: أن ذات الله مخالفة لجميع الذوات، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون. والثاني، أن الله تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبودة؟ قلت: قالوا: كانوا يعبدون الله مع أوثانهم، وأن تكون ﴿ إِلَّا ﴾ صفة بمعنى غير، على أن ﴿ ما ﴾ في ما تعبدون موصوفة[3]. تقديره: إنني براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني، فهو نظير قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ على التسويف؟ قلت: قال مرة: ﴿ فهو يهدين ﴾ [الشعراء: ٧٨]/ ٢/ ١٦٨أ ومرة ﴿ فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ فاجمع بينهما وقدّر، كأنه قال. فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال. ﴿ وَجَعَلَهَا ﴾ وجعل إبراهيم صلوات الله عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ ﴿ كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ ﴾ في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده، لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم. ونحوه ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ ﴾

---

(١) قوله: «نحو كريم وكرام» في الصحاح: الكرام ـ بالضم ـ: مثل الكريم. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: وردّه الشيخُ بأنه لا يجوز إلاَّ في نَفْيٍ أو شِبْهِهِ قال: وعَزَّهُ كَوْنُ بَرَاءٍ في معنى النَّفْيِ ولا ينفعه ذلك لأنه مُوجِبٌ: قد تَأَوَّلَ النحاةُ ذلك في مواضع من القرآن كقوله: ﴿يأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ والاستثناء المُفَرَّغ لا يكون في إيجاب، ولكن لَمَّا كَانَ يأتي بمعنى لا تفعل وإنها لكَبِيرَةٌ بمعنى لا تَسْهُلُ وَلاَ تَخِفُّ ساغَ ذلك، فهذا مثله. انتهى. الدر المصون.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وإنَّمَا أَخْرَجَهَا في هذا الوجه عن كونها موصولة؛ لأنه يرى أَنَّ «إلا» بمعنى غَيْر لا يوصفُ بها إلاَّ النكرةُ، وفيها خلافٌ فعلى هذا يجوز أن تكون «ما» موصولةً وإلاَّ بمعنى غير صفة لها. انتهى. الدر المصون.

[البقرة: ١٣٢] وقيل: وجعلها الله. وقرئ: «كلمة» على التخفيف وفي عقبه كذلك، وفي عاقبه، أي: فيمن عقبه، أي: خلفه.

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَآءِ ﴾ يعني: أهل مكة، وهم من عقب إبراهيم بالمدّ في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد؛ ﴿ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ وهو القرآن ﴿ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ الرسالة واضحها بما معه من الآيات البينة، فكذبوا به وسموه ساحرًا وما جاء به سحرًا ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم. وقرئ «بل متعنا» فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ «متعت» بفتح التاء؟ قلت: كأن الله تعالى اعترض على ذاته في قوله: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٨] فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد. وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم؛ لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببًا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أندادًا، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه، ثم يقبل على نفسه فيقول: أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله.

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

فإن قلت: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع، ثم أردفه[1] قوله: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ ﴾ فما طريقة هذا النظم ومؤداه؟ قلت: المراد بالتمتيع ما هو سبب له، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته، فقال: بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع، ثم أردفه... الخ» قال أحمد: كلام نفيس لا مزيد عليه، إلا أن قوله: «خيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها» إطلاق ينبغي اجتنابه، والله أعلم، وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الإضراب في بعض التارات، فكما جاءت الغاية هنا ـ وليس المراد بها أن الفعل المذكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها، بل المراد استمراره وزيادته، فكأن تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها ـ كذلك الإضراب في مثل قوله تعالى: (بل إدارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) وهذه الإضرابات ليست على معنى أن الثاني منها رد للأول، بل ثانيها آكد من أولها، وجاء الإضراب مع التوافق والزيادة للإشعار بأن الثاني لما زاد على الأول صار باعتبار زيادته ونقصان الأول كأنهما شيئان متنافيان يضرب عن أولهما ويثبت آخرهما، ومثله كثير، وبالله التوفيق.

التنبه، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال: ولما جاءهم الحق جاءوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها: وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق، ومكابرة الرسول، ومعاداته، والاستخفاف بكتاب الله وشرائعه، والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد من أهل زمانه بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم، قرئ: «على رجل» بسكون الجيم من القريتين: من إحدى القريتين، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٢] أي من أحدهما. والقريتان: مكة والطائف. وقيل: من رجلي القريتين، وهما: الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، عن ابن عباس. وعن مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل. وعن قتادة: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي، وكان الوليد يقول: لو كان حقًا ما يقول محمد لنزل هذا القرآن عليّ أو على أبي مسعود الثقفي، وأبو مسعود: كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث الله بشرًا رسولاً، فلما علموا بتكرير الله الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالاً من أهل القرى، جاءوا بالإنكار من وجه آخر، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين، وقولهم: هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة به، وأرادوا بعظم الرجل: رياسته وتقدّمه في الدنيا، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند الله عظيمًا.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوّة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها، والمتولين لقسمة رحمة الله التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته، ثم ضرب لهم مثلاً فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في دنياهم، وأنّ الله عز وعلا هو الذي قسم بينهم معيشتهم وقدرها ودبر أحوالهم تدبير العالم بها، فلم يسوّ بينهم، ولكن فاوت بينهم في أسباب العيش، وغاير بين منازلهم فجعل منهم أقوياء وضعفاء وأغنياء ومحاويج وموالي وخدمًا؛ ليصرف بعضهم بعضًا في حوائجهم ويستخدموهم في مهنهم ويتسخروهم في أشغالهم، حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى منافعهم ويحصلوا على مرافقهم؛ ولو وكلهم إلى أنفسهم وولاهم تدبير أمرهم لضاعوا وهلكوا. وإذا كانوا في تدبير أمر المعيشة الدنية في الحياة الدنيا على هذه الصفة، فما ظنك بهم في تدبير أمور الدين الذي هو رحمة الله/ ٢/ ١٦٨ب الكبرى ورأفته العظمى؟ وهو الطريق إلى حيازة حظوظ الآخرة، والسلم إلى حلول دار السلام؟ ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ

رَبِّكَ﴾ يريد: وهذه الرحمة وهي دين الله وما يتبعه من الفوز في المآب: خير ممّا يجمع هؤلاء من حطام الدنيا. فإن قلت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع[1]، ومنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام؛ فإذن قد قسم الله تعالى الحرام كما قسم الحلال. قلت: الله تعالى قسم لكل عبد معيشته وهي مطاعمه ومشاربه وما يصلحه من المنافع وأذن له في تناولها، ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها؛ فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالاً، وسماها رزق الله؛ وإذا لم يسلكها تناولها حرامًا، وليس له أن يسميها رزق الله[2]؛ فالله تعالى قاسم المعايش والمنافع، ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم، وهو عدولهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال من قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك: وهبت له ثوبًا لقميصه[3]. وقرئ: «سقفًا» بفتح السين وسكون القاف. وبضمها وسكون القاف وبضمها: جمع سقف، كرهن ورهن ورهن. وعن الفراء: جمع سقيفة وسقفًا بفتحتين، كأنه لغة في سقف وسقوفًا، ومعارج ومعاريج. والمعارج: جمع معرج، أو اسم جمع لمعراج: وهي المصاعد إلى العلالي. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي على المعارج، يظهرون السطوح يعلونها، فما اسطاعوا أن يظهروه. وسررًا، بفتح الراء لاستثقال الضمتين مع حرفي التضعيف. ﴿لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ اللام هي الفارقة بين إن المحففة والنافية. وقرئ بكسر اللام، أي: للذي هو متاع الحياة، كقوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦] ولما بالتشديد بمعنى إلا، وإن نافية. وقرئ: «إلا» وقرئ: وما كل ذلك إلا. لما قال:

---

(١) قال محمود: «فإن قلت: معيشتهم ما يعيشون به من المنافع... الخ» قال أحمد: قد تقدم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوم الله به حال العبد حلالاً كان أو حرامًا، وهذه الآية معضدة، والزمخشري بني على أصله، وقد تقدم.

(٢) قوله: «وليس له أن يسميها رزق الله» هذا على مذهب المعتزلة. وأما عند أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حرامًا. والمصنف يريد: أن الله لا ييسر الحرام؛ لأنه لا يفعل القبيح عند المعتزلة. ومذهب أهل السنة أن فاعل الكائنات كلها هو الله تعالى. (ع)

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: ولا أدري ما أراد بقوله، قلت: أراد بذلك أن اللامين للعلة، أي: كانت الهبة لأجلك لأجل قميصك، فلقميصك بدل اشتمال بإعادة العامل بعينه، وقد نقل أن قوله: «وهبنا له إسحاق» أنها للعلة. انتهى. الدر المصون.

﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] فقلل أمر الدنيا وصغرها: أردفه بما يقرّر قلة الدنيا عنده من قوله: ﴿لَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه، لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا[1] عندنا للكفار سقوفًا ومصاعد وأبوابًا وسررًا كلها من فضة وزخرف، وجعلنا لهم زخرفًا، أي: زينة من كل شيء. والزخرف: الزينة والذهب. ويجوز أن يكون الأصل: سقفًا من فضة وزخرف، يعني: بعضها من فضة وبعضها من ذهب، فنصب عطفًا على محل ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ وفي معناه قول رسول الله ﷺ: «لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء» (١٣٩١) فإن قلت: فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدّى إليها التوسعة

١٣٩١ ـ أخرجه الترمذي (٤/ ٥٦٠) كتاب الزهد باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل حديث (٢٣٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٥٩٢١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٥٣) وابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٩٥٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٦)، والخطيب في «تاريخه» (٤/ ٩٢) والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٣٩) من طريق عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم عن سهل ابن سعد الساعدي به.

وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد توبع عبد الحميد، تابعه أبو يحيى زكريا ابن منظور.

أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٦ ـ ١٣٧٧) كتاب الزهد: باب مثل الدنيا حديث (٤١١٠)، والحاكم (٤/ ٣٠٦)، وابن أبي عاصم في الزهد (١٢٨) من طريق زكريا بن منظور عن أبي حازم به وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

وتعقبه الذهبي فقال: زكريا بن منظور ضعفوه. وفي «الزوائد» في إسناده زكريا بن منظور وهو ضعيف.

وللحديث شواهد من حديث ابن عمر أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٤٤٠) ومن حديث ابن عباس.

أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٠٤).

وقال الحافظ ابن حجر في تخريج الكشاف: فيه عبد الحميد بن سليمان وتابعه زكريا بن منظور، وقال الترمذي: وفي الباب عن أبي هريرة. وحديثه عند البزار من حديث صالح مولى التوأمة عنه، =

---

(١) قال محمود: «معناه: لولا كراهية أن يجتمعوا على الكفر لجعلنا للكفرة سقوفًا من فضة، أي: لوسعنا عليهم الدنيا لحقارتها عندنا» قال أحمد: «لولا» هنا أخت «لولا» في قوله: (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم... الآية) فلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة ذلك بأن لا تقدر محذوفًا كما قدمته، فيكون وجه الكلام ههنا أن إجماعهم على الكفر مانع من بسط الدنيا. وهذا هو معنى لولا المطرد أن ما بعدها أبدًا مانع من جوابها، ولكن قد يكون المانع موجودًا تحقيقًا فيمتنع الجواب بلا إشكال، كقوله تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين) وهو الأكثر. وقد يكون وجوده تقديرًا معه على ذلك الآية، أي: لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدرًا لوجد مانعه عندنا وهو الاجتماع على الكفر مقدرًا معه، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد.

عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضًا لما تؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، والدخول في الدين لأجل الدنيا من دين المنافقين [1]، فكانت الحكمة فيما دبر، حيث جعل في الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر على الغنى.

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قرئ: «ومن يعشُ» بضم الشين وفتحها. والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل: عشى. وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به قيل عشا. ونظيره: عرج، لمن به الآفة [2]؛ وعرج، لمن مشى مشية العرجان من غير عرج. قال الحطيئة [من الطويل]:

= ولفظه: «ما أعطي كافرًا منها شيئًا» ورواه البيهقي في الشعب في الحادي والسبعين من رواية أبي معشر عن المقبري عنه وفي الباب عن ابن عباس، أخرجه أبو نعيم في الحلية، وفيه الحسن بن عمارة وهو ضعيف جدًا، وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر، بلفظ المصنف قال ابن طاهر: فيه علي بن محمد بن أحمد بن أبي عوف عن أبي مصعب عنه، لا أصل له من حديث مالك. انتهى.

---

(١) قال محمود: «فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة من الإطباق على الكفر، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإيمان؟ وأجاب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضًا لما يؤدي إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين» قال أحمد: سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين، إحداهما: تعليل أفعال الله تعالى، والأخرى: أن الله تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين. أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنها بقوله: (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه بقوله: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا).

(٢) قال محمود: «يقال: عشي بصره بكسر الشين إذا أصابته الآفة...» قال أحمد: في هذه الآية نكتتان بديعتان، إحداهما: الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون، وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم، حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول بأن النكرة في سياق الإثبات تخص، وقال: إن الشرط يعم، والنكرة في سياقه تعم. وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن علي الأنباري شارح كتابه ردًا عنيفًا. وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية؛ وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكرًا في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحدًا لوجهين، أحدهما: أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطانًا، فكيف بالعاشي عن ذكر الله. والآخر: يؤخذ من الآية، وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعًا في قوله: (وإنهم) فإنه عائد إلى =

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ ..... [1]

أي: تنظر إليها نظر العشيّ لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء. وهو بَيِّنٌ في قول حاتم [من الكامل]:

أَعْشُو إِذَا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخِدْرُ [2]

== الشيطان قولاً واحدًا «ولولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال، فهذه نكتة تجد عند إسماعها لمخالفي هذا الرأي سكتة. النكتة الثانية: أن في هذه الآية ردًّا على من زعم أن العود على معنى (من) يمنع من العود على لفظها بعد ذلك. واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير، وهو خلاف المعهود من الفصاحة. وقد نقض الكندي هذا بقوله تعالى: (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحًا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا قد أحسن الله له رزقًا) ونقض غيره بقوله: (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه... الآية) وكان جدي رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك؛ لأنه أعاد على اللفظ في قوله: (يعش) و(له) مرتين، ثم على المعنى في قوله: (ليصدونهم) ثم على اللفظ بقوله: (حتى إذا جاءنا) وقد قدمت أن الذي منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة، وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك حتى رددت على الزمخشري في قوله تعالى: (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا) فإن الجملة واحدة، فانظره في موضعه.

(١) كسوب ومتلاف إذا ما سألته تهلل واهتز اهتزاز المهند
وذاك امرؤ إن يعطك اليوم نائلاً بكفيه لم يمنعك من نائل الغد
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

للحطيئة، يقول: هو كثير الكسب وكثير الإتلاف، وبينهما طباق التضاد: إذا سألته أجابك بسرعة وطلاقة وجه وهو المراد بقوله: تهلل واهتز كاهتزاز السيف المطبق من حديد الهند، إذا أعطاك اليوم عطاء بكفيه معًا كناية عن كثرة العطاء، وسألته في غد أعطاك أيضًا. وعشي يعشى كرضي ويرضى: إذا كان ببصره آفة. وعشا يعشو: إذا تعاشى بغير آفة. والمعنى: متى تأته على هيئة الأعشى ـ مجاز عن إظهار الفاقة ـ تجده أكرم الناس، عبر عنه بذلك على طريق الكناية.

ينظر: البيت في ديوانه ص ٥١، وإصلاح المنطق ص ١٩٨، والأغاني ٢/ ١٦٨، وخزانة الأدب ٣/ ٧٤، ٧/ ١٥٦، ٩/ ٩٢ ـ ٩٤، وشرح أبيات سيبويه ٢/ ٦٥، والكتاب ٣/ ٨٦، ولسان العرب (عشا)، ومجالس ثعلب ص ٤٦٧، والمقاصد النحوية ٤/ ٤٣٩، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٨٧١، وخزانة الأدب ٥/ ٢١٠، وشرح الأشموني ٣/ ٥٧٩، وشرح ابن عقيل ص ٥٨١، وشرح عمدة الحافظ ص ٣٦٣، وشرح المفصل لابن يعيش ٢/ ٦٦، ٤/ ١٤٨، ٧/ ٤٥، ٥٣، وما ينصرف وما لا ينصرف ص ٨٨، والمقتضب ٢/ ٦٥.

(٢) ناري ونار الجار واحدة وإليه قبلي تنزل القدر
ما ضرني جار أجاوره ألا يكون لبابه ستر
أعشو إذا ما جارتي برزت حتى يواري جارتي الخدر

لحاتم الطائي: وعشي يعشى كرضي يرضى: صار لا يبصر ليلاً. وعشا يعشو كدعا يدعو: إذا نظر كنظر الأعشى. =

وقرئ: «يعشو» على أنّ من موصولة غير مضمنة معنى الشرط. وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض[1]. ومعنى القراءة بالفتح: ومن يعم ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن، كقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] وأما القراءة بالضم فمعناها: ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ نخذله[2] ونخل بينه وبين الشياطين، كقوله تعالى:

= يقول: إن ناري هي نار جاري، وتنزل قدري إليه ليأكل منها قبلي، أو ناري ونار جاري واحدة في الزمن والقوة ومع ذلك تنزل قدره إليه قبلي ليأكلها سريعًا خوف اطلاع أحد عليه. لكن يبعد هذا أن المقام ليس لذم الجار بل للمدح. ثم هذا كناية عن شدة كرمه على غيره، ثم وصف نفسه بالعفة بقوله: ما ضرني جار من جيراني بمسبة ولا غيرها من أن لا يكون لبابه حجاب يستر أهله، فإني أتغافل وأغض بصري إذا خرجت جارتي، حتى يسترها بيتها. وأتى بالظاهر موضع المضمر ليفيد أنه ينبغي مراعاة حق الجوار. والاحتمال الأول أقعد؛ لأن معناه أنه يبره ويعف عن محارمه. وأما الثاني ففيه ذم جاره. وهو لا يلائم ما بعده.
ينظر: ديوانه (٢٤٥)، أمالي المرتضى (٢/ ٤٧٤)، البحر المحيط (٨/ ٤)، الدر المصون (٦/ ٩٨).

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخُ: ولا يتعيَّنُ موصوليتها بل يُخَرَّجُ على وجهين؛ إما تقديرُ حَذْفِ حركةِ العلة وقد حكاها الأخفشُ لغة وتقدمَ منه في سورة يوسف شواهد، وإمَّا على أنه جَزَمَ بِمَنْ الموصولة تشبيهاً لها بِمَنْ الشرطية قال: وإذَا كانوا قد جزموا بالذي وليس بِشَرْطٍ فأولى بما استعمل شَرْطاً وغيرَ شرط وأنشد [من الطويل]:

وَلاَ تَحْفِرَنْ بِشْراً تُرِيدُ أَخاً بِهَا ... فَإِنَّكَ فِيهَا أَنْتَ مِنْ دُونِهِ تَقَعْ.
كذاك الذي يَبْغِي على الناسِ ظَالِماً ... تُصِبْهُ عَلَى رَغْمٍ عواقبُ مَا صَنَعْ

قال: وهو مذهب الكوفيين، وله وجه من القياس وهو أنَّ الذي أَشْبَهَتْ اسم الشرطَ في دخول الفاء في خبرها فَتُشَبِهُ اسمَ الشرط في الجزم أيضاً إلاَّ أَنَّ دخول الفاء مُنْقَاسٌ بشرطه. وهذا لا ينقاس ويقال: عَشَا يَعْشُو وعَشِيَ يَعْشَى فبعضهم جعلهما بمعنى وبعضهم فَرَّقَ بأن عَشِيَ يَعْشَى إِذَا جعلت الآفَةُ سن بصره وأصله الواو وإنما قلبت ياء لانكسار ما قبلها كرَضِيَ يَرْضَى وعَشَا يَعْشُو أي تفاعل. ذلك ونَظَرَ نَظَرَ العُشْيِ ولاَ آفَةَ ببصره كما قالوا: عَرِجَ لِمَنْ به آفة العَرَجِ وعَرَج لمن تَعَارَجَ ومَشَى مِشْيَةَ ال عُرْجَانِ قال [من الكامل]:

أَعْشُو إذا مَا جَارَتِي بَرَزَتْ ... حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الخِدْرُ

أي أُنْظُرَ نَظَرَ العَشِي. وقال آخر [من الطويل]:

مَتَى تأته تَعْشُو إلى ضَوْءِ نَارِه ... تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

أي تَنْظُر نَظَر العُشْي لضعف بصره من كثرة الوقود، بعضُهم بأن عَشَوْتَ إلى النار إِذَا استدلَلْتَ عليها بنظرٍ ضعيف. وقال الفراء: عَشَا يَعْشِي يَعْرِضُ وعَشِيَ عَمِيَ. إلاَّ أَنَّ ابنَ قتيبة قال: لم نَرَ أحداً حكى عَشَوْتُ عن الشيء أَعْرَضْتُ عنه وإنما يقال: تَعَاشَيْتُ عن كذا إِذَا تَغَافَلْتُ عنه وتَعامَيتُ. وقرأ العامة «نُقَيِّضْ» بنون العظمة وعلي بن أبي طالب والأعمش ويعقوب والسلمي وأبو عمرو وعاصم في روايةٍ عنهما «يُقَيِّضُ» بالياء من تحت أي يُقَيِّضْ الرحمنُ والشَّيْطَانَ نَصْبٌ في القراءتين. وابنُ عباسٍ «يُقَيَّضْ» مبنياً للمفعول «شَيْطَانٌ» بالرفع قائمٌ مقام الفاعل. انتهى الدر المصون.

(٢) قوله: «نقيض له شيطانًا: نخذله» تأويله بذلك مبني على أنه تعالى لا يفعل القبيح، وهو مذهب =

Obeikandl.com

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: ٢٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [مريم: ٨٣] وقرئ: «يقيض» أي: يقيض له الرحمٰن ويقيض له الشيطان. فإن قلت: لم جمع ضمير من وضمير الشيطان في قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾؟ قلت: لأنّ (من) مبهم في/٢/١٦٩أ جنس العاشي، وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه، فلما جاز أن يتناولا لإبهامهما غير واحدين: جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعًا. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ العاشي. وقرئ: «جاآنا» على أنّ الفعل له ولشيطانه. ﴿قَالَ﴾ لشيطانه ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ يريد المشرق والمغرب، فغلب كما قيل: العمران والقمران. فإن قلت: فما بعد المشرقين؟ قلت: تباعدهما، والأصل: بعد المشرق من المغرب، والمغرب من المشرق. فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية: أضاف البعد إليهما. ﴿بِئْسَ﴾ في محل الرفع على الفاعلية، يعني: ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه، لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لشدّته وعنائه؛ وذلك أنّ كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته، ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله: (يا ليت بيني وبينك) على معنى: ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمني مباعدة القرين. وقوله: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ تعليل، أي: لن ينفعكم تمنيكم؛ لأنّ حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركون في سببه وهو الكفر. وتقوّيه قراءة من قرأ «إنكم» بالكسر وقيل: إذا رأى الممنو بشدّة[1] من مني بمثلها: روّحه ذلك ونفس بعض كربه، وهو التأسي الذي ذكرته الخنساء [من الوافر]:

. . . . . أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي[2]

= المعتزلة. وعند أهل السنة أنه فاعل الكائنات كلها، فالآيات على ظاهرها. (ع)

(١) قوله: «إذا رأى الممنو بشدة» أي المبتلى. ومني: أي ابتلى، أفاده الصحاح. (ع)

(٢) يذكرني طلوع الشمس صخرًا ... وأذكره بكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن ... أعزي النفس عنه بالتأسي

للخنساء ترثي أخاها. وإسناد التذكير للطلوع: مجاز عقلي؛ لأنه سبب في تذكيرها إياه، وكذلك الغروب حيث كان ذهابه عند الأول وإيابه عند الثاني عادة. أو لأنه يذهب في الأول للغارات، ويجلس في الثاني مع الضيفان. أو لأن طلوعها يشبه طلعته، وغروبها: يشبه موته. وفيه نوع من البديع يسمى التنكيت: وهو الإتيان بلفظ يسد غيره مسده، لولا نكتة فيه ترجح اختصاصه بالذكر: لكان اختصاصه خطأ، كما في اختصاص الوقتين هنا. أفاده السيوطي في شرح عقود الجمان. وفيه أيضًا نوع آخر يسمى الإدماج: وهو أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر، كما ضمن الكلام المسوق هنا لمعنى الرثاء معنى المدح بالشجاعة والكرم. أو بحسن الطلعة. والباء في «بكل» سببية. ويحتمل أن الإسناد للأول من باب الإسناد للزمان، فتكون الباء في الثاني بمعنى «في» أو «مع» وذكر الشمس ثانيًا في آخر المصراع الثاني من باب رد العجز على الصدر. وأعزي النفس: أسليها =

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروّحهم؛ لعظم ما هم فيه. فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾؟ قلت: معناه: إذ صح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين، وذلك يوم القيامة. وإذ: بدل من اليوم. ونظيره [من الطويل]:

إِذَا مَا أَنتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِي لَئِيمَةٌ ..... [1]

أي: تبين أني ولد كريمة.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾

كان رسول الله ﷺ يجد ويجتهد ويكدّ روحه في دعاء قومه، وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميمًا على الكفر وتماديًا في الغيّ، فأنكر عليه بقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم، وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾

(ما) في قوله: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بمنزلة لام القسم: في أنها إذا دخلت دخلت معها النون المؤكدة، والمعنى: فإن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم ونشفي صدور المؤمنين منهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أشد الانتقام في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] وإن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعدناهم من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر، فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتوننا، وصفهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة. وقرئ: «نرينك» بالنون الخفيفة. وقرئ: «بالذي أوحىٰ إليك» على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجل، والمعنى: وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر. فكن مستمسكًا بما أوحينا إليك وبالعمل به فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ضالٌّ شقي، وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين الله، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك، ولكن كما يفعل الثابت[2]

= وأصبرها عنه بالتأسي، أي: الاقتداء بغيري من أهل المصائب وفي اقتدائها بالباكين من الرجال: إشعار بتجلدها وعظم شأنها مثلهم. وروي «على أمواتهم» بدل: «على إخوانهم»، و«أسلي» بدل «أعزي».
ينظر: ديوانها (٨٥)، البحر المحيط (٨/ ١٧)، المخصص (١٦/ ٢٢).

(١) تَقَدَّمَ.

(٢) قوله: «ولكن كما يفعل الثابت» لعله: وكن. أو لعله: ولكن كن. (ع)

الذي لا ينشطه تعجيل ظفر، ولا يثبطه تأخيره.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ الذي أوحي إليك ﴿لَذِكْرٌ﴾ لشرف ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَ﴾ لـ ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنه يوم القيامة، وعن قيامكم بحقه، وعن تعظيمكم له، وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين، ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظرًا وفحصًا[1]: نظره في كتاب الله المعجز المصدّق لما بين يديه، وإخبار الله فيه بأنهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانًا. وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها، والسؤال الواقع مجازٌ عن النظر، حيث لا يصح السؤال على الحقيقة: كثير منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال. وقول من قال: سل الأرض: من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك حوارًا[2] أجابتك اعتبارًا. وقيل: إن النبيّ ﷺ جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأمّهم. وقيل له/ ٢/ ١٦٩ب: سلهم، فلم يشكك ولم يسأل. وقيل: معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. وعن الفراء: إنما هم يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾

ما أجابوه به عند قوله: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ محذوف، دل عليه قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي يسخرون منها ويهزءون بها ويسمونها سحرًا. وإذا للمفاجأة. فإن قلت: كيف جاز أن يجاب لَمّا بإذا المفاجأة؟ قلت: لأنّ فعل المفاجأة معها مقدّر، وهو عامل النصب[3] في

---

(١) قال محمود: «سؤال مجاز عن الفحص في شرائعهم والنظر في مللهم... الخ» قال أحمد: ويشهد لإرادة سؤال الأمم. (فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) والله أعلم.

(٢) قوله: «تجبك حوارًا» أي مخاطبة بالنطق. في الصحاح: استحاره، أي: استنطقه. (ع)

(٣) قال محمود: «جازت فيه إجابة لما بإذا التي للمفاجأة؛ لأن فعل المفاجأة مقدر معها، وهو العامل فيها النصب... الخ» قال أحمد: الظاهر في تسويغ هذا الإطلاق ـ والله أعلم ـ أن كل واحدة من هذه الآي إذا أفردتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته، حتى يجزم أنها النهاية، وأن كل آية دونها. فإذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت أيضًا فكره بعظمها، وذهل عن الأولى فجزم بأن هذه =

محلها، كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجئوا وقت ضحكهم.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فإن قلت: إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات؟ قلت: أختها التي هي آية مثلها. وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل والاستقراء واحدة بعد واحدة، كما تقول: هو أفضل رجل رأيته. تريد: تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذا قروتهم رجلاً رجلاً[1]، فإن قلت: هو كلام متناقض؛ لأنّ معناه: ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها، فتكون واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة. قلت: الغرض من هذا الكلام أنهنّ موصوفات بالكبر، لا يكدن يتفاوتن فيه، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير التي تختلف آراء الناس في تفضيلها، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا: رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك. ومنه بيت الحماسة [من البسيط]:

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ: لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي[2]

= النهاية، وأن كل آية دونها. والحاصل أنه لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما؛ لينحقق عنده الفاضلة من المفضولة، بل مهما أفرده بالكفر جزم بأنه النهاية. وعلى هذا التقدير يجري جميع ما يرد من أمثاله، والله أعلم.

(١) قوله: «إذا قروتهم رجلاً رجلاً» أي تتبعتهم. (ع)

(٢) هينون لينون أيسار ذوو كرم ... سواس مكرمة أبناء أيسار
إن يسألوا الخير يعطوه وإن جهدوا ... فالجهد يخرج منهم طيب أخبار
وإن تـوددتـهـم لانـوا وإن شـهـمـوا ... كـشـفـت أذمـار شـرّ غـيـر أشـرار
لا ينطقون عن الفحشا وإن نطقوا ... ولا يـمـارون مـن مـارى بـإكـثـار
من تلق منهم تقل: لاقيت سيدهم ... مثل النجوم التي يسري بها الساري

لعبيد بن الأبرص. وقيل للعرندس. وهينون لينون: جمع هين ولين: تخفيف هين ولين بالتشديد، على فيعل. وأيسار: جمع يسر، كقطب وأقطاب، وهو في الأصل ضد العسر، سمي به الرجل مبالغة، أو جمع يسرة كقصبة، وهي في الأصل: الخط في باطن الكف، أطلقت على الرجل إشعارًا بالكرم. وسواس: جمع سائس، بمعنى مالك متصرف بالمصلحة، وبمعنى الولي المصلح. وجهده الطعام: إذا اشتاق إليه واشتهاه. وجهد الرجل فهو مجهود: أصابه القحوط والمشقة. وقوله: «فالجهد يخرج منهم» جواب الشرط. ويحتمل أنه استئناف مفرغ على ما قبله. وإن جهدوا: جوابه دل عليه ما قبله. والشهامة: الخشونة، وشهمت الفرس حركته ليسرع. وأذمار شر: أي شجعان حرب: جمع ذمر ككبد، من ذمر الرجل: عبس وغضب. وذمر الأسد زأر بصوته، أي: إن حملتهم على الحرب أظهرت منهم شجعان حرب غير أشرار. وضمن النطق معنى الإخبار، فعداه =

وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها، ثم قالت: لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت. ثكلتهم [1]إن كنت أعلم أيهم أفضل، وهم كالحلقة المفرّغة لا يدرىٰ أين طرفاها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان [2]؛ فإن قلت: لو أراد رجوعهم لكان، قلت: إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به [3]ويطلب منه إيجاده، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد، وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف، وإنما لم يكن الرجوع لأنّ الإرادة لم تكن قسرًا ولم يختاروه. والمراد بالعذاب: السنون، والطوفان، والجراد، وغير ذلك.

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

وقرئ: «يا أيه الساحر» بضم الهاء، وقد سبق وجهه. فإن قلت: كيف سموه بالساحر مع قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾؟ قلت: قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾: وعد منوي إخلافه، وعهد معزوم على نكثه، معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم: (إننا لمهتدون) وقيل: كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم علم السحر:

= بعن. ويجوز أنها بمعنى الباء. والمماراة: الجدال. وبإكثار: متعلق بـ «مارى»، أو بـ «يمارون». من تلقه منهم تقل فيه: لاقيت أشرفهم لتساويهم في الشرف، فهم مثل النجوم في التساوي في الشرف والاهتداء والاستضاءة بكل. فكما أن النجم يهتدي به المسافر، كذلك هم يهتدي بهم المختبط الطالب للمعروف أو المتحير في أمر معضل. ويروى بدل «وإن جهدوا... الخ»: وإن خبروا. في الجهد أدرك منهم طيب أخبار. أي: إن اختبروا علم كرمهم وحسن سيرتهم.

(١) قوله: «ثكلتهم» الثكل: فقدان المرأة ولدها.

(٢) قال محمود: «معناه إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان... الخ» قال أحمد: تقدم في غير موضع أن «لعل» حيثما وردت في سياق كلام الله تعالى فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين، أي: ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك، هذا هو الحق. وعليه تأول سيبويه ما ورد. وأما الزمخشري فيحمل «لعل» على الإرادة؛ لأنه لا يتحاشى مع اعتقاد أن الله يريد شيئًا ويريد العبد خلافه، فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الرب ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ـ فما أشنعها زلة وأبشعها خلة. ولقد أساء الأدب في هذا الموضع؛ حتى إنه لولا تعين الرد عليه لما جرى القلم بنقل ما هدي به وما اهتدى. وقد جرى على سنن أوائله في جعل حقيقة الأمر هو الإرادة، وأضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلقه، وأن مراد العبد يقع، ومراد الرب لا يقع؛ فهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض؛ نعوذ بالله من هذه الغواية: (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا).

(٣) قوله: «ليس إلا أن يأمره به» هذا مذهب المعتزلة. أما مذهب أهل السنة: فإرادته غير الأمر، سواء كانت لفعل نفسه أو لفعل غيره، ولا يلزم تأويل الآية بالإرادة؛ لجواز أن يكون معناها: ليكون حالهم عند الأخذ بالعذاب حال من يرجى رجوعهم. (ع)

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك: من أن دعوتك مستجابة. أو بعهده عندك وهو النبوّة. أو بما عهد عندك فوفيت به وهو الإيمان والطاعة. أو بما عهد عندك من كشف العذاب عمن اهتدى.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ﴾ جعلهم محلاً لندائه وموقعًا له. والمعنى: أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأماكنهم من نادى فيها بذلك، فأسند النداء إليه، كقولك: قطع الأمير اللص، إذا أمر بقطعه. ويجوز أن يكون عنده عظماء القبط، فيرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم ينشر عنه في جموع القبط، فكأنه نودي به بينهم فقال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ يعني أنهار النيل ومعظمهما أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تنيس: قيل: كانت تجري تحت قصره. وقيل: تحت سريره لارتفاعه. وقيل: بين يدي في جناني وبساتيني. ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر. وتجري: نصب على الحال منها، وأن تكون الواو للحال، واسم الإشارة مبتدأ، والأنهار صفة لاسم الإشارة، وتجري خبر للمبتدأ، وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر، وعجب الناس من مدى عظمته، وأمر فنودي بها في أسواق مصر وأزقتها؛ لئلا تخفى تلك الأُبَّهَة[1] والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته. وعن الرشيد: أنه لما قرأها قال: لأولينها أخس عبيدي، فولاها الخصيب، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها، فخرج إليها فلما شارفها وقع عليها بصره قال: أهي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: أليس لي ملك مصر، والله لهي أقل عندي من أن أدخلها، فثنى عنانه. ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾/ ٢/ ١٧٠أ أم هذه متصلة؛ لأنّ المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون، إلا أنه وضع قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ موضع: تبصرون؛ لأنهم إذا قالوا له: أنت خير، فهم عنده بصراء، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب[2]. ويجوز

---

(١) قوله: «تلك الأبهة» كسكرة، كذا بهامش الصحاح. وفي الصحاح: «دهماء الناس»: جماعتهم. (ع)

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وهذا متكلّفٌ جدًا؛ إذ المعادل إنما يكون مُقَابِلاً للسابق، فَإِنْ كَانَ المعادلُ جملة فعلية كان السابق جملة فعلية أو جملة اسمية يُتَقَدَّرُ منها فعلية كقوله: ﴿أدعوتموهم أم انتم صامتون﴾ لأن معناه أَمْ صَمَتُّم. وهنا لا يتقدر منها جملة فعلية؛ لأنَّ «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» ليس مقابلاً لقوله: «أَفَلاَ تُبْصِرُونَ» وإن كان السابقُ اسمًا كان المعادل اسمًا أو جملة فعلية يتقدر منها اسمٌ، نحو قوله [من الرجز]:

أَمُخْدَجُ الْيَدَيْنِ أَمْ أَتَمَّتِ؟ =

أن تكون منقطعة على: بل أأنا خير، والهمزة للتقرير، وذلك أنه قدم تعديد أسباب الفضل والتقدّم عليهم من ملك مصر وجري الأنهار تحته، ونادى بذلك وملأ به مسامعهم، ثم قال: أنا خير كأنه يقول: أثبت عندكم واستقر أني أنا خير وهذه حالي ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ضعيف حقير. وقرئ: «أما أنا خير» ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلام لما به من الرُّتة[1] يريد: أنه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به، وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة، وكانت الأنبياء كلهم أبيناء[2] بلغاء. وأراد بإلقاء الأسورة عليه: إلقاء مقاليد الملك إليه، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوّروه بسوار وطوّقوه بطوق من ذهب. ﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ إما مقترنين به من قولك: قرنته فاقترن[3] به، وإما من: اقترنوا، بمعنى تقارنوا: لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى صلوات الله عليه، فوصفه بالضعف وقلة الأعضاد اعترض فقال: هلا إن كان صادقًا ملكه ربه وسوّده وسوّره، وجعل الملائكة أعضاده وأنصاره. وقرئ: «أساور» جمع «أسورة» و«أساوير» جمع أسوار وهو السوار، و«أساورة» على تعويض التاء من ياء أساوير. وقرئ: «ألقي عليه أسورة» وأساور، على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فاستفزهم. وحقيقته: حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم، وكذلك: استفز، من قولهم للخفيف: فز.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿ءَاسَفُونَا﴾ منقول من أسف أسفًا إذا اشتد غضبه. ومنه الحديث في موت الفجأة: «رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر» (١٣٩٢). ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي وعدوا

١٣٩٢ ـ تقدم في سورة طه، وقال الحافظ: تقدم في سورة طه. انتهى.

= فأتَمَّتْ معادلُ للاسم فالتقدير أَمْ مُتِمًّا؟ قُلْتُ: وهذا الذي رده على الزمخشري رَدٌّ على سيبويه؛ لأنه السابق به. وكذا قوله أيضًا: أنه لا يحذف المعادل بعد أَمْ إلاَّ وبعدها «لاَ» فيه نَظَرٌ من حيث تجويز سيبويه حذف المعادل دون «لاَ» فهو رَدٌّ على سيبويه أيضًا. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «لما به من الرتة» بالضم: العجمة في الكلام، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «وكانت الأنبياء كلهم أبيناء» في الصحاح: بان الشيء بيانًا: اتضح، فهو بين، والجمع أبيناء، مثل هين وأهيناء. (ع)

(٣) قوله: «قرنته فاقترن به» لعله قرنته به فاقترن. (ع)

طورهم، فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا، وأن لا نحلم عنهم. وقرئ: «سلفًا» جمع سالف، كخادم وخدم. وسلفا ـ بضمتين ـ جمع سليف، أي: فريق قد سلف. وسلفا: جمع سلفة، أي: ثلة قد سلفت. ومعناه: فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم؛ لإتيانهم بمثل أفعالهم، وحديثًا عجيب الشأن سائرًا مسير المثل، يحدثون به ويقال لهم: مثلكم مثل قوم فرعون.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

لما قرأ رسول الله ﷺ على قريش ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] امتعضوا[1] من ذلك امتعاضًا شديدًا، فقال عبد الله بن الزبعرىٰ: يا محمد، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أنّ عيسى ابن مريم نبيّ وتثني عليه خيرًا وعلى أمه، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما. وعزير يعبد. والملائكة يعبدون، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضحكوا، وسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ونزلت هذه الآية (١٣٩٣). والمعنى: ولما ضرب عبد الله بن الزبعرىٰ عيسى ابن مريم مثلاً، وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قريش من هذا المثل ﴿يصدّون﴾ ترتفع لهم جلبة وضجيج[2] فرحًا وجزلاً وضحكًا بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ بجدله، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعيّوا بحجة ثم فتحت عليهم. وأمّا من قرأ «يصدّون» بالضم ـ فمن الصدود، أي: من أجل هذا المثل يصدّون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل: من الصديد وهو الجلبة، وأنهما لغتان نحو: يعكف ويعكف ونظائر لهما. ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون أنّ آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى، إذا كان عيسى من حصب النار كان أمر آلهتنا هينًا. ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أي ما ضربوا هذا المثل ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الميز بين الحق

١٣٩٣ ـ تقدم في سورة الأنبياء. وقال الحافظ ابن حجر، تقدم في أواخر الأنبياء. انتهى.

---

(١) قوله: «امتعضوا من ذلك» غضبوا منه وشق عليهم، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «ترتفع لهم جلبة وضجيج» أي صياح وكذا اللجب. أفاده الصحاح. (ع)

والباطل، ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ لدّ شداد الخصومة دأبهم اللجاج، كقوله تعالى: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] وذلك أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ما أريد به إلا الأصنام، وكذلك قوله عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» إنما قصد به الأصنام، ومحال أن يقصد به الأنبياء والملائكة، إلا أن ابن الزبعرى بخبثه وخداعه وخُبْثِ دُخْلَتِه[1] لما رأى كلام الله ورسوله محتملاً لفظه وجه العموم، مع علمه بأنّ المراد به أصنامهم لا غير، وجد للحيلة مساغًا، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله، على طريقة المحك والجدال[2] وحب المغالبة/ ٢/ ١٧٠ب والمكابرة، وتوقح في ذلك فتوقر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فدل به على أنّ الآية خاصة في الأصنام، على أنّ ظاهر قوله: (وما تعبدون) لغير العقلاء. وقيل: لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] قالوا: نحن أهدى من النصارى؛ لأنهم عبدوا آدميًا ونحن نعبد الملائكة، فنزلت. وقوله: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ على هذا القول: تفضيل لآلهتهم على عيسى؛ لأنّ المراد بهم الملائكة وما ضربوه لك إلا جدلاً. معناه: وما قالوا هذا القول، يعني: ءآلهتنا خير أم هو. إلا للجدال، وقرئ: «ءآلهتنا خير» بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها؛ لدلالة أم العديلة عليها. وفي حرف ابن مسعود: خير أم هذا. ويجوز أن يكون ﴿جدلاً﴾ حالاً، أي: جدلين. وقيل: لما نزلت ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٩] قالوا: ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرًا، كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر. ومعنى ﴿يَصِدُّونَ﴾ يضجون ويضجرون. والضمير في ﴿أَمْ هُوَ﴾ لمحمد ﷺ، وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم: السخرية به والاستهزاء. ويجوز أن يقولوا ـ لما أنكر عليهم قولهم: الملائكة بنات الله وعبدوهم ـ ما قلنا بدعا من القول، ولا فعلنا نكرًا من الفعل؛ فإنّ النصارى جعلوا المسيح ابن الله وعبدوه، ونحن أشف[3] منهم قولاً وفعلاً، فإنا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسي، فقيل لهم: مذهب النصارى شرك بالله، ومذهبكم شرك مثله، وما تنصلكم مما أنتم عليه بما أوردتموه إلا قياس باطل بباطل، وما عيسى ﴿إِلَّا عَبْدٌ﴾ كسائر العبيد ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ حيث جعلناه آية: بأن خلقناه من غير سبب، كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوّة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبنيَ إسرائيل.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

---

(١) قوله: «وخبث دخلته» بالضم: باطن أمره. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله: «على طريقة المحك» أي: اللجاج، كما في الصحاح. (ع)

(٣) قوله: «ونحن أشف منهم» أي: أرق. أفاده الصحاح. (ع)

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر ﴿لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ لولدنا منكم يا رجال ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ يخلفونكم في الأرض كما يلخفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل؛ لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام، وذات القديم متعالية عن ذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإن عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي شرط من أشراطها تعلم به، فسمي الشرط علمًا لحصول العلم به. وقرأ ابن عباس: لعلم، وهو العلامة. وقرئ: «للعلم» وقرأ أبيّ: لذكر، على تسمية ما يذكر به ذكرًا، كما سمي ما يعلم به علمًا. وفي الحديث: أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدّسة: يقال لها: أفيق وعليه ممصرتان، وشعر رأسه دهين، وبيده حربة، وبها يقتل الدجال، فيأتي بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم، فيتأخر الإمام فيقدّمه عيسى ويصلي خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب، ويخرب البيع والكنائس، ويقتل النصارى إلا من آمن به (١٣٩٤). وعن الحسن: أن الضمير للقرآن، وأن

١٣٩٤ ـ قال الزيلعي: غريب بهذا اللفظ، وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند وهو مفرق في الأحاديث،

أ ـ قوله ثنية أفيق أخرجه أحمد (٤/ ٢١٧)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٧٨): كتاب الفتن والملاحم، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٩١): كتاب الفتن باب ما ذكر في فتنة الدجال، حديث (٣٧٤٧٨)، في كنز العمال (٣٨٨٢٩) وذكره المتقي الهندي. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٢٤٣) وزاد نسبته إلى الطبراني. قوله. «وعليه ممصرتان».

أخرجه أبو داود في سننه (٤/ ١١٧): كتاب الملاحم باب خروج الدجال، (٤٣٢٤)، وأحمد بن حنبل في مسنده (٢/ ٤٠٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٥) كتاب التاريخ، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٢٣٣): كتاب التاريخ باب إخباره ﷺ عما يكون في أمته من الفتن، والحوادث، حديث (٦٨٢١).

من حديث أبي هريرة:

قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وقوله: «والناس في صلاة الصبح».

أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٥٩): كتاب الفتن باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج حديث (٤٠٧٧).

قوله «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب».

أخرجه البخاري في صحيحه (٥/ ٤١٥): كتاب المظالم: باب كسر الصليب وقتل الخنزير، حديث (٢٤٧٦)، أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٤٦٦): كتاب الإيمان: باب نزول عيسى بن مريم حاكمًا =

القرآن به تعلم الساعة؛ لأن فيه الإعلان بها، ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ من المرية وهي الشك، ﴿وَاتَّبِعُونِ﴾ واتبعوا هداي وشرعي. أو رسولي. وقيل: هذا أمر لرسول الله أن يقوله: ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه. أو هذا القرآن إن جعل الضمير في ﴿وَإِنَّهُ﴾ للقرآن.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قد بانت عداوته لكم[1]: إذ أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات. أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات. ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ يعني: الإنجيل والشرائع. فإن قلت: هلا بيّن لهم كل الذي يختلفون فيه ولكن بعضه؟ قلت: كانوا يختلفون في الديانات وما يتعلق بالتكليف وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم. ﴿الْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزبة بعد عيسى عليه السلام. وقيل: اليهود والنصارى. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وعيد للأحزاب. فإن قلت: ﴿مِن بَيْنِهِمْ﴾ إلى من يرجع الضمير فيه؟ قلت: إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ﴾ وهم قومه المبعوث إليهم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ

= حديث (١٥٥)، وأبو داود في سننه (٤/١١٧): كتاب الملاحم: باب خروج الدجال، حديث (٤٣٢٤)، والترمذي في سننه (٤/٥٠٦): كتاب الفتن باب ما جاء في نزول عيسى بن مريم عليه السلام، حديث برقم (٢٢٣٣)، وابن ماجه (٢/١٣٦٣): كتاب الفتن: باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم... حديث (٤٠٧٨)، وأحمد بن حنبل في مسنده (٢/٢٤٠)، والحميدي في مسنده (٢/٤٦٨)، حديث (١٠٩٧) من حديث أبي هريرة، وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي بغير سند، وهو موجود في أحاديث متفرقة. فقوله: «ثنية أفيق» عند الحاكم من حديث عثمان بن أبي العاص. وقوله: «وعليه ممصرتان» عند أحمد والحاكم من حديث أبي هريرة. وقوله: والناس في صلاة الصبح» عند ابن ماجه من حديث أبي أسامة، وقوله: «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب» في الصحيح من حديث أبي هريرة. انتهى.

---

(١) قوله: «قد بانت عداوته لكم» في الصحاح «بان الشيء، بيانًا»: اتضح فهو بين، كذلك أبان فهو مبين. (ع)

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ
ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾
لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدل من الساعة. والمعنى: هل ينظرون إلا إتيان الساعة. فإن قلت: أما أدى قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ مؤدّى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فيستغني عنه؟ قلت: لا؛ لأنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم، كقوله تعالى: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾/ ٢/ ١٧١أ [يس: ٤٩] ويجوز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بعدوّ، أي: تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين في غير ذات الله، وتنقلب عداوة ومقتًا، إلا خلة المتصادقين في الله، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوّة إذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله. وقيل: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إلا المجتنبين أخلاء السوء. وقيل: نزلت في أبيّ بن خلف، وعقبة بن أبي معيط. ﴿يَٰعِبَادِ﴾ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في الله يومئذٍ، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منصوب المحل صفة لعبادي؛ لأنه منادى مضاف، أي: الذين صدّقوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين وجوههم لنا، جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا. وقيل: إذا بعث الله الناس فزع كل أحد، فينادي مناد، يا عبادي فيرجوها الناس كلهم، ثم يتبعها الذين آمنوا فييأس الناس منها غير المسلمين. وقرئ: «يا عباد» ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون سرورًا يظهر حباره - أي: أثره - على وجوهكم، كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤] وقال الزجاج: تكرمون إكرامًا يبالغ فيه. والحبرة: المبالغة فيما وصف بجميل. والكوب: الكوز لا عروة له. ﴿وَفِيهَا﴾ الضمير للجنة. وقرئ: «تشتهي» وتشتهيه. وهذا حصر لأنواع النعم؛ لأنها إما مشتهاة في القلوب، وإما مستلذة في العيون. ﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى الجنة المذكورة. وهي مبتدأ، و﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ خبر. و﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ صفة الجنة. أو الجنة صفة للمبتدأ الذي هو اسم الإشارة. والتي أورثتموها: خبر المبتدأ. أو التي أورثتموها: صفة، و﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الخبر، والباء تتعلق بمحذوف كما في الظروف التي تقع أخبار. وفي الوجه الأول تتعلق بأورثتموها. وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة. وقرئ: «ورّثتموها» ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من للتبعيض، أي: لا تأكلون إلا بعضها، وأعقابها باقية في شجرها، فهي مزينة بالثمار أبدًا موقرة بها، لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا.

وعن النبي ﷺ: «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها[1] إلا نبت مكانها مثلاها» (١٣٩٥).

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ لا يخفف ولا ينقص، من قولهم: فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلاً ونقص حرّها. والمبلس: اليائس الساكت سكوت يأس من فرج. وعن الضحاك: يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالدًا: لا يرى ولا يرى. ﴿هُمْ﴾ فصل عند البصريين، عماد عند الكوفيين. وقرئ: «وهم فيها» أي: في النار[2] وقرأ علي وابن مسعود رضي الله عنهما: «يا مال» بحذف الكاف للترخيم، كقول القائل [من المنسرح]:

..... وَالْحَقُّ يَا مَالِ غَيْرُ مَا تَصِفُ[3]

وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ «ونادوا يا مال» فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم (١٣٩٦). وعن بعضهم: حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم

١٣٩٥ ـ تقدم في سورة البقرة:
قال الحافظ: أخرجه البزار عن ثوبان، وقد تقدم في البقرة. انتهى.

١٣٩٦ ـ قال الزيلعي: غريب ـ تخريج الكشاف (٣/ ٢٥٦)، هذا وقد روى البخاري في صحيحه (٦/ ٤٥٨): كتاب بدء الخلق: باب إذا قال أحدكم أمين...، حديث (٣٢٣٠) ومسلم (٣/ ٤٢٠): كتاب الجمعة: باب تخفيف الصلاة والخطبة، حديث (٨٧١) عن يعلى عن أبيه: «سمعت رسول ـ ﷺ ـ يقرأ على المنبر: «ونادوا يا مالِ» قال سفيان في قراءة عبد الله: «ونادوا يا مال» واللفظ للبخاري. =

---

(١) قوله: «من ثمرها إلا نبت مكانها» في الخازن: ورد في الحديث «أنه لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها». (ع)

(٢) قوله: «وقرئ: (وهم فيها) أي في النار» لعل تأخير الكلام على هذه القراءة عن الكلام على الضمير السابق من تصرف الناسخ؛ لأنه مخالف لترتيب التلاوة. (ع)

(٣) يحيي رفات العظام بالية والحق يا مال غير ما تصف
أي: يحيي الله المتفتت من العظام حال كونها بالية، يقال: رفته رفتًا، إذا فتته. والرفات: اسم منه كالفتات، قال: والحق غير ما تذكره يا مالك، فرخمه بحذف الكاف، كأنه كان أخبره بموت أحد ثم ظهرت حياته.
وهو لعمرو بن امرىء القيس في لسان العرب ٥/ ٤٦ (فجر)، والتنبيه والإيضاح ٢/ ١٨١، وتاج العروس ١٣/ ٣٠٠ (فجر)، وبلا نسبة في ديوان الأدب ١/ ٢١٣.

ما هم فيه. وقرأ أبو السّرار الغنوي «يا مال» بالرفع كما يقال: يا حار[1] ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ من قضى عليه إذا أماته ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] والمعنى: سل ربك أن يقضي علينا. فإن قلت: كيف قال: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ﴾ بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قلت: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتًا لغلبة اليأس عليهم، وعلمهم أنه لا فرج لهم، ويغوّثون[2] أوقاتًا لشدّة ما بهم. ﴿مَّٰكِثُونَ﴾ لابثون. وفيه استهزاء. والمراد: خالدون. عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنما يجيبهم بعد ألف سنة (١٣٩٧). وعن النبي ﷺ «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون: ادعوا مالكًا، فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك» (١٣٩٨). ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ كلام الله عزّ وجل: بدليل قراءة من قرأ: «لقد جئتكم» ويجب أن يكون في قال ضمير الله عز وجل. لما سألوا مالكًا أن يسأل الله تعالى القضاء عليهم: أجابهم الله بذلك.

= وقال الحافظ ابن حجر في الكشاف: لم أجده بإسناد.
وفي البخاري عن يعلى بن أمية «أنه سمع النبي ﷺ يقرؤها كذلك. انتهى.

١٣٩٧ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٤٨): كتاب التفسير، والطبري في جامع البيان (١١/ ٢١٣): حديث برقم (٣٠٩٩١)، وسفيان الثوري في تفسيره (ص ٢٧٣): حديث (٨٨٦)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٠٢)، وذكره الواحدي في الوسيط (٤/ ٨٢)، وابن كثير في تفسيره (٤/ ١٣٥)، والسيوطي في الدر المنثور (٥/ ٧٣٥)، وزاد نسبته إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في وصفة النار وابن المنذر والبيهقي في البعث والنشور قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
وقال الحافظ: أخرجه الحاكم من رواية سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: (ونادوا يا مالك) قال: مكث عنهم ألف سنة ثم يقول: «إنكم ماكثون» وروى الترمذي من رواية قطبة بن عبد العزيز عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ـ الحديث: وفيه: قال الأعمش: بين أن ينزل عليهم وإجابة مالك ألف عام» وقال الترمذي: قطبة ثقة. وبعض أهل الحديث كان يرفع هذا. وهذا أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب ورواه الطبري من رواية شريك عن الأعمش موقوف ولم يفصل الكلام الأخير. ثم رواه من طريق قطبة مرفوعًا؛ ولم يفعل أيضًا. انتهى.

١٣٩٨ ـ أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٧٠٧): كتاب صفه جهنم، باب ما جاء في صفه طعام أهل النار حديث (٢٥٨٦)، وأبو بكر بن شيبة في مصنفه (٧/ ٤٩) كتاب ذكر النار: باب ما ذكر فيما أعد لأهل النار وشدته حديث (٣٤١٢٩)، والطبري في جامع البيان (٩/ ٢٤٨) حديث (٢٥٦٨٦).
قال الترمذي: إنما تعرف هذا الحديث عن الأعمش عن شمر بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله وليس بمرفوع. وقال الحافظ: هو في الحديث الذي قبله. انتهى.

---

(١) قوله: «كما يقال: يا حار» في نداء حارث. (ع)
(٢) قوله: «ويغوثون» في الصحاح: «غوث الرجل»: قال: واغوثاه. (ع)

﴿كَٰرِهُونَ﴾ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه؛ لأنّ مع الباطل الدعة، ومع الحق التعب.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿أَمْ﴾ أبرم مشركو مكة ﴿أَمْرًا﴾ من كيدهم ومكرهم برسول الله ﷺ: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كيدنا كما أبرموا كيدهم؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الطور: ٤٢]؟ وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول الله ﷺ. فإن قلت: ما المراد بالسر والنجوى؟ قلت: السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال. والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعهما ونطلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ يريد/ ٢/ ١٧١ب الحفظة عندهم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك. وعن يحيى بن معاذ الرازي: من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السمٰوات فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ۖ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ﴾ من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له[1] كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة، وفي معنى

---

(١) قال محمود: «معناه إن صح وثبت برهان قاطع، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له... الخ» قال أحمد: لقد اجترأ عظيمًا واقتحم مهلكة في تمثيله ذلك بقول من سماه عدليًا: إن كان الله خالقًا للكفر في القلوب ومعذبًا عليه فأنا أول القائلين: إنه شيطان وليس بإله، فلينقم عليه ذلك بقول القائل: قد ثبت قطعًا عقلاً وشرعًا أنه تعالى خالق لذلك في القلوب كما خلق الإيمان، وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق إلا الله، وتصديقًا بمضمون قوله تعالى: (هل من خالق غير الله) وقوله: (الله خالق كل شيء) وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلاً ونقلاً: لزمه فرك أذنه وغل عنقه؛ إذ يلحد في الله إلحادًا لم يسبقه إليه أحد من عباده الكفرة، ولا تجرأ عليه مارد من مردة الفجرة. ومن خالف في كفر القدرية فقد وافق على كفر من تجرأ فقال هذه المقالة واقتحم هذه الضلالة بلا محالة؛ فإنه قد صرح بكلمة الكفر على أقبح وجوهها وأشنع أنحائها: والله المسئول أن يعصمنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها. ونظيره أن يقول العدلي للمجبر[1]، إن كان الله تعالى خالقًا للكفر في القلوب ومعذبًا عليه عذابًا سرمدًا، فأنا أول من يقول: هو شيطان وليس بإله؛ فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقًا للكفر، وتنزيهه عن ذلك وتقديسه، ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا، مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذاهب إليه، والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه، وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه. ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له ـ: أما والله[2] لأبدلنك بالدنيا نارًا تلظى ـ: لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلهًا غيرك. وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه، فقيل: إن كان للرحمٰن ولد في زعمكم، فأنا أول العابدين الموحدين لله، المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه. وقيل: إن كان للرحمٰن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد: إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد. وقرأ بعضهم: «العبدين» وقيل: هي إن النافية، أي: ما كان للرحمٰن ولد، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد. وروي: أنّ النضر بن عبد الدار بن قصي قال: إن الملائكة بنات الله فنزلت، فقال النضر: ألا ترون أنه قد صدقني. فقال له الوليد بن المغيرة: ما صدقك ولكن قال: ما كان للرحمٰن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة: أن لا ولد له. وقرئ: «ولد» بضم الواو. ثم نزه ذاته موصوفة بربوبية السمٰوات والأرض والعرش عن اتخاذ الولد؛ ليدل على أنه من صفة الأجسام. ولو كان جسمًا لم يقدر على خلق هذا العالم وتدبير أمره.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ﴾ وهذا دليل على أنّ ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب، وإعلام لرسول الله ﷺ أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين لا يرجعون البتة، وإن ركب في دعوتهم كل صعب وذلول، وخذلان لهم وتخلية بينهم وبين الشيطان، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] وإيعاد بالشقاء في العاقبة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ

---

(١) قوله: «ونظيره أن يقول العدلي للمجبر» يريد: أحد المعتزلة لأحد أهل السنة، وفي هذا التنظير من سوء الأدب في حقه تعالى ما لا يخفى. (ع)

(٢) قوله: «قال له: أما والله» في الصحاح: «أما» مخففة تحقيق للكلام الذي يتلوه، اهـ. ولعل حذف الألف لغة، فليحرر. (ع)

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ضمن اسمه تعالى معنى وصف؛ فلذلك علق به الظرف في قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] كما تقول: هو حاتم في طيّ، حاتم في تغلب، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به، كأنك قلت: هو جواد في طي جواد في تغلب. وقرئ: «وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله» ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] كأنه ضمن معنى المعبود أو المالك أو نحو ذلك والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام، كقولهم: ما أنا بالذي قائل لك شيئًا، وزاده طولاً أنّ المعطوف داخل في حيّز الصلة. ويحتمل أن يكون ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ صلة الذي وإله خبر مبتدأ محذوف، على أنّ الجملة بيان للصلة. وأنّ كونه في السماء على سبيل الإلٰهية والربوبية، لا على معنى الاستقرار. وفيه نفي الآلهة التي كانت تعبد في الأرض. ﴿تُرْجَعُونَ﴾ قرئ بضم التاء وفتحها. و«يرجعون» بياء مضمومة. وقرئ: «تحشرون» بالتاء.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة، كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله، ولكن من ﴿شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو توحيد الله، وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص: هو الذي يملك الشفاعة، وهو استثناء منقطع. ويجوز أن يكون متصلاً؛ لأنّ في جملة الذين يدعون من دون/ ٢/ ١٧٢أ الله: الملائكة، وقرئ: «تدعون» بالتاء وتدّعون بالتاء وتشديد الدال.

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿وَقِيلِهِۦ﴾ قرئ بالحركات الثلاث، وذكر في النصب عن الأخفش أنه حمله على: أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله، وعنه: وقال قيله. وعطفه الزجاج على محل الساعة، كما تقول: عجبت من ضرب زيد وعمرًا، وحمل الجرّ على لفظ الساعة، والرفع

---

(١) قال محمود: «ضمن اسمه عز وجل معنى وصف، فعلق به الظرف. وهو قوله: (في السماء)... الخ» قال أحمد: ومما سهل حذف الراجع مضافًا إلى الطول الذي ذكره: وقوع الموصول خبرًا عن مضمر لو ظهر الراجع لكان كالتكرار المستكره؛ إذ كان أصل الكلام: وهو الذي هو في السماء إله. ولا ينكر أن الكلام مع المحذوف الراجع أخف وأسهل، وأن الراجع إنما حذف على قلة حذف مثله لأمر متأكد؛ فإنه لم يرد في الكتاب العزيز إلا في قوله: (تمامًا على الذي أحسن) ومع أي في موضعين على رأي.

على الابتداء، والخبر ما بعده وجوّز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف. معناه: وعنده علم الساعة وعلم قيله. والذي قالوه ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضًا، ومع تنافر النظم. وأقوى من ذلك وأوجه: أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم: أيمن الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولعمرك: ويكون قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ جواب القسم، كأنه قيل: وأقسم بقيله يا رب. أو وقيله يا رب قسمي إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ فأعرض عن دعوتهم يائسًا عن إيمانهم، وودعهم وتاركهم، ﴿وَقُلۡ﴾ لهم ﴿سَلَٰمٞۚ﴾ أي تسلم منكم ومتاركة. ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ وعيد من الله لهم وتسلية لرسوله ﷺ. والضمير في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ لرسول الله ﷺ، وإقسام الله بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه.

عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنة بغير حساب» (١٣٩٩).

١٣٩٩ ـ تقدم برقم (٣٤٦). وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي وابن مردويه، والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. انتهى.